مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ١١

الفكر الاستراتيجي والتكتيك العسكري في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ: دراسة تحليلية

د. كلي حسين محمد

جامعة دهوك \ كلية التربية \ قسم التاريخ

gule.mohammad@uod.ac

د. خالدة سلمان إبراهيم

جامعة دهوك \ كلية التربية \ قسم التاريخ

Khalida.ibrahim@uod.ac

الكلمات المفتاحية: أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، الاستراتيجية العسكرية، الحروب الصليبية، بلاد الشام، التاريخ العسكري الإسلامي، التكتيكات الميدانية، القرن السادس الهجري.

كيفية اقتباس البحث

محمد، كلي حسين ، خالدة سلمان إبراهيم ، الفكر الاستراتيجي والتكتيك العسكري في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ: دراسة تحليلية،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، تشرين الثاني ٢٠٢٦، المجلد:١٦ ،العدد:١١ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Strategic Thought and Military Tactics in the Levant during the 6th Century AH / 12th Century AD from the book "Kitab al-I'tibar" (The Book of Learning by Example) by Usama ibn Munqidh: An Analytical Study

Dr. Kulli Hussein Mohammed
University of Duhok / College of Education / Department of History

Dr. Khalida Salman Ibrahim
University of Duhok / College of Education / Department of History

Keywords : Usama ibn Munqidh, Kitab al-I'tibar, military strategy, the Crusades, the Levant, Islamic military history, field tactics, sixth Islamic century.

How To Cite This Article
Mohammed, Kulli Hussein, Khalida Salman Ibrahim, Strategic Thought and Military Tactics in the Levant during the 6th Century AH / 12th Century AD from the book "Kitab al-I'tibar" (The Book of Learning by Example) by Usama ibn Munqidh: An Analytical Study,Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, November 2026,Volume:16,Issue 11.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

This study examines Usama ibn Munqidh's Kitab al-I'tibar (488–584 AH/1095–1188 CE) as a rare firsthand account of military practice in the Levant throughout the sixth Islamic century/twelfth century CE, aiming to uncover the strategic and tactical structures embedded within the text through a critical analytical reading that remains firmly anchored in historical context, while acknowledging that the author occupied the position of an active participant rather than a dispassionate observer.

Drawing on a historical-analytical methodology grounded in the close and critical examination of primary sources, the study unfolds across five successive axes: the biographical and intellectual context that shaped Usama and his work; the overarching strategic principles the text illuminates, including flexible defense, war of attrition, military diplomacy, and psychological warfare; the granular details of field tactics spanning cavalry operations, infantry deployment, siege warfare, intelligence networks, and logistical systems; the geographical, technological, human, and religious variables that converged to shape military decision-making; and a comparative critical analysis of Islamic and Crusader approaches to warfare as refracted through Ibn Munqidh's analytical perspective.

The study yields several substantive conclusions. The Kitab al-I'tibar emerges not merely as autobiography or chronicle but as an applied military document disclosing a coherent strategic framework that integrates architectural fortification, field maneuver, active intelligence, and religious motivation into a unified and internally consistent whole. The study further demonstrates that the conflict landscape of the period was far from a straightforward binary confrontation between Islam and the Crusades; it was instead a layered and intricate field of rivalries in which internal Islamic contestation and external Crusader pressure operated simultaneously. The persistent absence of coordinated leadership and the fragmentation of political loyalties repeatedly squandered decisive military opportunities, notwithstanding the individual competence and battlefield valor that combatants on the Islamic side frequently displayed. With respect to the comparative dimension, the study identifies shared foundational elements in the military philosophies of both sides, imposed by terrain and tactical necessity, even as the two parties remained structurally distinct in their command architectures and distribution of roles. The study ultimately affirms that the full scholarly potential of this invaluable source can only be realized through systematic engagement with contemporary Crusader and Byzantine sources — a research trajectory that opens fertile ground for comparative studies capable of reconstructing a more balanced and comprehensive understanding of the conflict and civilizational encounter in the Levant during the twelfth and thirteenth centuries.

الملخص

يُعنى هذا البحث بدراسة مؤلَّف "الاعتبار" لأسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ/١٠٩٥-١١٨٨م) باعتباره شاهداً أولياً نادراً على طبيعة الممارسة العسكرية في بلاد الشام طوال القرن

السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ويروم الكشف عن البنية الاستراتيجية والتكتيكية الكامنة في هذا النص عبر مقاربة تحليلية نقدية تحكم صلتها بالسياق التاريخي، وتضع في حسبانها أن المؤلف كان فاعلاً في الأحداث لا مراقباً محايداً لها. وقد انتهج البحث المنهج التاريخي التحليلي مستنداً إلى القراءة المعمّقة للمصادر الأولية وفحصها النقدي الدقيق، وقد انتظم في خمسة محاور متلاحقة: أولها السياق الذي نشأ فيه أسامة وأنتج كتابه؛ وثانيها المبادئ الاستراتيجية الكبرى التي يجلّيها النص من دفاع مرن وحرب استنزاف وتوظيف للدبلوماسية العسكرية واحتكام إلى الحرب النفسية؛ وثالثها التكتيكات الميدانية في تفاصيلها الدقيقة سواء على صعيد الفرسان أو المشاة أو عمليات الحصار أو شبكات الاستخبارات أو منظومة الإمداد؛ ورابعها العوامل الجغرافية والتقنية والبشرية والدينية التي تضافرت في التأثير على صناعة القرار العسكري؛ وخامسها مقاربة نقدية مقارنة بين المقاربتين الإسلامية والصليبية في تدبير الحرب كما تنعكسان في عدسة ابن منقذ التحليلية.

وقد انتهى البحث إلى جملة من الخلاصات الجوهرية؛ إذ تبيّن أن "الاعتبار" يتجاوز حدود السيرة والتاريخ الحوليّ ليرقى إلى مستوى الوثيقة العسكرية التطبيقية، الكاشفة عن منظومة استراتيجية متماسكة توحد بين التحصين المعماري والحركة الميدانية والاستخبارات الفاعلة والحافز الديني في كيان واحد منسجم. كما كشف البحث أن مشهد الصراع في تلك الحقبة لم يكن صراعاً ثنائياً مبسطاً بين الإسلام والصليبيين، بل كان حقلاً مركّباً من التنافسات المتداخلة التي جمعت الاحتراب الداخلي الإسلامي إلى الضغط الصليبي الخارجي في آن واحد. وتبيّن كذلك أن افتقار القيادة إلى التنسيق وتمزّق الولاءات السياسية كانا يُهدران الفرص الحاسمة تكراراً، على الرغم مما أبدته العناصر الفردية من كفاءة قتالية وشجاعة ميدانية. وعلى صعيد المقارنة، رصد البحث قواسم مشتركة في الفلسفة الحربية لدى الجانبين فرضتها طبيعة التضاريس ومتطلبات التكتيك، وإن ظلّ الفارق واسعاً بينهما على مستوى البنى القيادية وتوزيع الأدوار. ويُجلّي البحث في ختامه أن الطاقة المعرفية الكاملة لهذا المصدر الثمين لن تتكشف إلا حين يُوضع وجهاً لوجه أمام المصادر الصليبية والبيزنطية المعاصرة له، وهو مسار بحثي يفتح آفاقاً خصبة نحو دراسات مقارنة قادرة على إعادة بناء صورة أكثر اتزاناً وشمولاً للصراع والتلاقح الحضاري في بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

المقدمة

يحتلّ كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ/١٠٩٥-١١٨٨م) موقعاً فريداً لا يُنازَع في منظومة المصادر الأولية للتاريخ العسكري والحضاري في العصور الوسطى الإسلامية،

وتتضافر في بنيته النصية طبقات متداخلة لا يمكن فصل بعضها عن بعض؛ فالكتاب في آن واحد سيرةٌ ذاتية تجسد مسيرة فارس جمع بين السيف والقلم والسياسة، وسجلٌّ تاريخي يرصد مرحلة عصيبة بالغة القلق والتحوّل، وتحليلٌ عسكري مستقى من عقود طويلة في ميادين القتال الفعلي، ومرآةٌ حضارية تنعكس فيها منظومة القيم والتصورات التي كانت تشكّل وعي النخبة العسكرية والأدبية في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

وقد عاش ابن منقذ تجربةً نادرة في ثرائها واتساع مداها الزمني، إذ كان شاهداً فاعلاً لا متفرجاً صامتاً على ما يزيد عن سبعة عقود من الصراعات المتشعّبة التي احتشدت في مسرح جيوسياسي واحد قوىً متباينة الهويات والمصالح والغايات؛ إمارات إسلامية ينخر فيها التنافس الداخلي، وقوى صليبية وافدة أرست أقدامها على أرض الشام، وإمبراطورية بيزنطية تسعى لاسترداد ما أفلت من نفوذها. وقد جعل هذا التشابك المشهد الجيوسياسي في تلك الحقبة شديد التعقيد، عصيّاً على أي تصنيف ثنائي مختزِل.

ومن هذه المنطلقات تنبثق الإشكالية المحورية التي يُعالجها البحث: كيف أفصحت الاستراتيجيات والتكتيكات العسكرية التي وثّقها "الاعتبار" عن طبيعة موازين القوى المتبدلة، وعن أنماط التفاعل والتكيّف والصراع بين القوى الإسلامية والصليبية والبيزنطية في تلك المرحلة؟ وهل يُمكن انتزاع منظومة فكرية عسكرية متماسكة من ثنايا هذا النص الغني، أم أن ما يحفل به من معطيات لا يعدو كونه حصيلة تجارب فردية متناثرة لا يربطها خيطٌ تحليلي جامع؟

وللوقوف على إجابات منهجية رصينة، ينتهج البحث مساراً تحليلياً يقوم على استقراء النصوص الأولية في الكتاب واستجوابها نقدياً، مع استحضار دائم للموقع الإبستيمولوجي للمؤلف بوصفه شاهد عيان ومشاركاً مباشراً لا مؤرخاً يكتب من وراء حجاب زمني، وما ينجم عن ذلك من احتمالات التحيّز الذاتي والمؤسسي التي لا تستقيم قراءة منهجية جادة بإغفالها. ويُشير البحث في الوقت ذاته إلى ضرورة مقارنة هذه المعطيات بمصادر صليبية وبيزنطية معاصرة، بما يُعزز الموضوعية ويُكمل الصورة من جوانبها المختلفة.

وتنتظم الدراسة في خمسة محاور متكاملة تسير من العام نحو الخاص؛ يُعالج الأول السياق التاريخي لأسامة وكتابه ومنهجه في التوثيق، وينتقل الثاني إلى استجلاء الاستراتيجيات الكبرى التي اعتمدها القادة المسلمون، فيما يستعرض الثالث التكتيكات الميدانية التفصيلية على مستويات الفرسان والمشاة وعمليات الحصار والاستخبارات والإمداد، ويتأمل الرابع في العوامل الجغرافية والتقنية والبشرية والدينية وانعكاساتها على القرار العسكري، ليُختتم بمحور خامس يُقارن بصورة نقدية بين المقاربتين الإسلامية والصليبية في تدبير الحرب من خلال عدسة ابن منقذ

التحليلية، وذلك كلّه بهدف تقديم قراءة معمّقة لهذا المصدر الاستثنائي ترقى إلى مستوى متطلبات البحث التاريخي الأكاديمي الرصين.

المبحث الأول: أسامة بن منقذ

[1] وكتاب الاعتبار

أولاً: السياق التاريخي: الأوضاع السياسية والعسكرية في بلاد الشام

تمثّل شهادة أسامة[2] بن منقذ على وقائع عصره إضافةً ثمينة إلى رصيد الكتابة التاريخية العربية في العصر الوسيط، وتتجلى قيمتها بصورة خاصة في ما أماطت اللثام عنه من طبيعة التحالفات والتوترات التي اكتنفت بلاد الشام على امتداد القرن السادس الهجري. وفي هذا السياق، أفصح ابن منقذ عن تحالف جمع بين القوى البيزنطية والصليبية في مواجهة مشتركة ضد الإمارات الإسلامية، موثّقاً ذلك بقوله إن الأمر جرى "في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة، واتفق هو والإفرنج [3]خذلهم الله، واجمعوا على قصد شيزر [4]ومنازلتها" (ابن منقذ، ٢٠١٠.، ص. ١-٢)، وهو توثيق صريح لحملة الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني كومنين وما أبرمه من تنسيق مع الصليبيين عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م. ولا يخلو توظيفه دعاءَ "خذلهم الله" من دلالة عميقة، إذ يكشف عن موقفه الديني والوجداني الصريح إزاء هذا التحالف، مانحاً النص طابعاً مزدوجاً يتعانق فيه التوثيق الموضوعي مع التعليق العاطفي المباشر.

ولم يكن دور أسامة مقتصراً على الرصد والرواية، بل كان شريكاً فاعلاً في صنع أحداث تلك المرحلة المتقلبة، وقد تجلّى ذلك على نحو لافت في موقفه إبان حصار عسقلان،[5] حين أبدى حنكةً عسكرية واضحة في إدارة المواجهات الحركية قرب أسوار المدينة. وتكشف روايته أنه لمّا بلغ عسقلان [6]اصطدم بقوات صليبية تعترض طريقه، فـ"خرج إلينا ناصر الدولة ياقوت والي عسقلان، فقال ارفعوا ارفعوا أثقالكم ... قلت لاتخف هم يرونا في البريه ويعارضونا إلى أن وصلنا عسقلان ما خفناهم نخافهم الآن ونحن عندى مدينتنا؟ ... فاحتطنا بهم وعجلنا هم عن طي خيامهم فرموها كما هي منشوره وساروا راجعين ... وعاد الذين انهزموا من الرجالة [7] يتلاومون، وقالوا كان ابن منقذ أخبر منا" (ابن منقذ، ٢٠١٠.، ص. ١٦). وتنطوي هذه الرواية على وعي استراتيجي راسخ بجدوى الاستظهار بأسوار المدن في رد الهجمات وتحطيم زخمها، كما تجلّي بجلاء التبعات الوخيمة التي تترتب على غياب التنسيق بين قوات المشاة وسائر عناصر التشكيل القتالي.

ثانياً: التعريف بأسامة بن منقذ

يُمثِّل أسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ/١٠٩٥-١١٨٨م) نموذجاً فريداً لرجل الحرب والقلم معاً، إذ صاغت البيئة العسكرية المحيطة به منذ أبكر مراحل نشأته ملامح شخصيته، وأهَّلته لمضمار الأدوار المزدوجة على الصعيدين العسكري والسياسي. ولعل السبيل الأجدى لفهم هذا التشكُّل المبكر هو الرجوع إلى رواياته الذاتية التي أبقت على أثر تلك التجارب حيّاً في الذاكرة المكتوبة. ومن أجلى ما يكشف عن مبادرته الميدانية في سن مبكرة ما أثبته في سياق تداعيات معركة البلاط عام ٥١٣هـ/١١١٩م،[٨] حيث يقول: «نجم الدين بن إيلغازي بن ارتق [٩]رحمه الله كسر الإفرنج على البلاط وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة وأفناهم وقتل صاحب إنطاكية[١٠] روجار[١١] وجميع فرسانه ... وقد وصاه أن يسيروني إلى افامية بمن معي بشيزر من الناس والعرب لنهب زرع افامية» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤٠). وإذا استحضرنا أن أسامة لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين آنذاك، تبيَّن لنا أنه كان يتولى قيادة ميدانية فعلية في عنفوان شبابه، لا مجرد مشارك هامشي في تلك الأحداث.

غير أن التجربة العسكرية لم تكن وحدها مصدر ثقله، بل تعدت ذلك لتطال مناطق القرار السياسي أيضاً. وقد ترك حواره مع أحد القادة حول ما يتهدد شيزر من أخطار شاهداً صريحاً على جرأته في المجاهرة بالرأي من غير تحفظ، حيث جاء في كلامه: «بئس ما فعلت! أما يقول لك أتابك[١٢] لما كانت لحماً أكلها، ولما صارت عظماً رماها علي؟ ... قلت أنا جالس فيها. فإن سلم الله تعالى كان بسعادتك، ويكون وجهك ابيض عند صاحبك. وإن اخذ الموضع وقتلنا كان بآجالنا، وأنت معذور. قال: ما قال لي هذا القول أحد غيرك» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٢). وما كان لمحاوره أن يختم ذلك الحوار بهذا الإقرار لو لم يكن يُدرك أن لأسامة مكانةً تسبغ على قوله وزناً لا يمكن إغفاله.

وتمتد دائرة ثقل أسامة لتشمل شبكة علاقاته بكبار قادة تلك المرحلة، ولعل أبرزهم نور الدين محمود بن زنكي (٥١١-٥٦٩هـ/١١١٨-١١٧٤م)[١٣]، الذي التقى به في بصرى[١٤] حاملاً رسالة ذات طابع دبلوماسي. وقد أبقى أسامة على تفاصيل ذلك اللقاء في روايته، إذ قال: «وصلته ليله الاثنين وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به، فقال لي يا فلان، أهل دمشق أعداء والإفرنج أعداء، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٤). ويكشف هذا المقطع عن المشهد السياسي في تعقيداته الحقيقية؛ إذ لم يكن الصراع محصوراً بين طرفين واضحين، بل كانت القوى المتنافسة تتشابك خصوماتها الداخلية مع تهديد خارجي متواصل، مما جعل الحركة الدبلوماسية فيه ضرباً من المشي فوق حبال متقاطعة.

وعلى صعيد آخر لا يقل أهمية، يعود أسامة إلى جذور تشكُّل مقاتله الذاتي، مُرجعاً إياه إلى أسلوب أبيه الذي آثر التربية بالقدوة الصامتة على التوجيه الصريح. ويتجلى ذلك في روايته: «لم يره ينهاني عن قتال ولا راكبو خطر ... فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض اكثر من النهار واستخلصت من كان معهم وأخذتهم بعض خيل حمص» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٠٣). وفي هذا النهج التربوي ما يُعبر عن منطق الأسر الإقطاعية الحاكمة في تكوين أبنائها؛ منطق يقوم على الإلقاء المقصود في خضم التجربة الحية، مع إبقاء عين الأسرة مفتوحة في الظل دون أن تتدخل بكلمة.

ثالثاً: كتاب الاعتبار

لا يمكن تصنيف كتاب "الاعتبار" داخل خانة أدبية واحدة بلا تحفظ، ذلك أن هويته الفكرية تنبثق من توتر خلّاق بين عنصرين يكادان يتضادان: الانغماس في التجربة الحية من جهة، والتأمل المسافي في دلالاتها من جهة أخرى. ولعل حزن أسامة على مكتبته التي ابتلعها النهر خير كاشف عن طبيعة هذا التوتر، حيث يقول: «وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عاشت. فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال، والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته. وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال واجحفت بهلاك المال» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٣٥). إن من يُقدم الكتب الأربعة آلاف على سائر الممتلكات في سلَّم حزنه ليس مجرد جندي يسترجع معاركه، بل مفكر يُساءل الوجود في حضرة الفقد.

ومن اللافت أن أسامة لم يتركَ قارئه يستشفَّ منهجه التوثيقي من بين السطور، بل أعلنه صراحةً في مستهل أحد أقسام كتابه، إذ قال: «هذه طرف أخبار حضرت بعضها وحدثني بعضها من اثق به جعلتها

إلحاقاً في الكتاب، إذا ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم، وابدأت منها بأخبار الصالحين رضي الله عنهم أجمعين» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٦٩). وهذا التمييز المُعلَن بين المُعايَن والمنقول ليس مجرد أمانة أخلاقية، بل هو وعي منهجي مبكر يتقاطع مع ما أرسى علماء الحديث النبوي قواعده في نقد الإسناد منذ قرون سابقة، وهو ما يزيد الكتاب رصيداً في ميزان المصادر الأولية لتلك الحقبة.

والجدير بالملاحظة أن أسامة لم يكتفِ بالإفصاح عن آليات روايته، بل أقر علناً بما تفرضه حدود الذاكرة البشرية من قيود، قائلاً: «وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره، وما النسيان بمستنكر لمن طال عليه ممر الأعوام وهو وراثة بني آدم من أبيهم

عليه الصلاة والسلام» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٣٦). وفي هذا الاعتراف نزاهة نادرة، لأن من يؤرخ في العادة يميل إلى استكمال الفجوات لا الإشارة إليها، في حين أن أسامة جعل من الاعتراف بالنسيان ضرباً من التوثيق لا قدحاً فيه.

وتبقى روايات أسامة الميدانية التفصيلية خير تجسيد لهذا الطابع التوثيقي الدقيق، لا سيما تلك التي رسمت الإصابات القتالية بلغة تقترب من الوصف التشريحي، ومن ذلك ما رواه من «أن فارساً من أجنادنا يقال له سابه بن قنيب كلابي قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار وثلاثة أضلاع من جانبه الأيمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ومات لساعته» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤٨). وما يستوقف القارئ هنا ليس فقط دقة الوصف، بل تلك العناية بتسمية المقاتل العادي بكامل اسمه ونسبه، وهو ما يحوِّل الكتاب من مجرد سجل للوقائع الحربية المجردة إلى وثيقة إنسانية تخرج المغمورين من طيَّات النسيان.

وحين يُقرأ مسار أسامة كاملاً عبر صفحات الكتاب، يتكشف نمو شخصيته من الجرأة الغريزية إلى الكفاءة المتأمِّلة. ولعل مشهد قتال الأسد خير تكثيف لهذا المسار، حين يروي أن والده «صاح علي أبي رحمه الله لا تستقبله يا مجنون فيأخذك! فطعنته، فلا والله ما تحرك من مكانه، فمات موضعه. فما رأيته ينهاني عن قتال منذ ذلك اليوم» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٠٣). وتنعقد في هذا المشهد الواحد خيوط متعددة في آن واحد: فالجرأة الشبابية تتجاوز حد الحكمة، والأب الصامت يُراقب دون أن يتدخل، ثم يأتي التوفيق ليُحوِّل المغامرة إلى أساس لسمعة عسكرية ستمتد عقوداً. وبهذا يصبح "الاعتبار" في جوهره سيرةَ نضج تكتب نفسها بلغة الحرب.

المبحث الثاني: الاستراتيجيات العسكرية الكبرى

أولاً: استراتيجية الدفاع المرن

لم تقم الاستراتيجية العسكرية لأسرة بني منقذ ومعاصريهم من القادة على مبدأ التحصين الساكن وحده، بل جمعت بين دلالتين متكاملتين: البنية المعمارية الداخلية للقصور والدهاليز بوصفها خطوطاً دفاعية أولى، والمناورة الميدانية المتحركة بوصفها ضرورة لا تستغنى عنها. وقد تجلَّى البعد الأول في ممارسة تأمين القادة شخصياً داخل المقار والمجالس، وهو ما وثَّقه أسامة في قوله: «وكان يتردد بينهما رجلا يقال له مرتفع بن فحل وأنا مع ابن عباس[١٥] لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً أنام على رأس مخدته... فقلت يا مولاي لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك... فاطلع والده على الأمر فلاطفه واستماله، وقرر معه قتل الظافر[١٦]» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٢٠). وتكشف هذه الرواية أن الحماية لم تكن في جوهرها ترتيباً أمنياً مجرداً، بل

كانت منظومة مترابطة تجمع بين الحضور الجسدي المستمر والتدخل السياسي في اللحظات الحرجة.

أما البعد الثاني من هذه الاستراتيجية، فقد تمثَّل في القدرة على التحوُّل الآني بين الهجوم والتحصُّن وفق ما يقتضيه الموقف، وخير شاهد على ذلك ما جرى في عسقلان حين انتقلت القوات من حالة المناورة في الفضاء المفتوح إلى الاحتماء بأسوار المدينة دفعاً للخطر الصليبي. وقد سجل أسامة هذا التحوُّل في قوله: «فلما وصلنا عسقلان سحر... فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت والي عسقلان، فقال ارفعوا ارفعوا أثقالكم... قلت لا تخف هم يرونا في البريه ويعارضونا إلى أن وصلنا عسقلان ما خفناهم نخافهم الآن ونحن عندى مدينتنا؟... فدرت على سرب الرجالة وقلت يا صاحبنا ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٥-١٦). ويعكس هذا المشهد وعياً تكتيكياً ناضجاً قائماً على الاستثمار الأمثل للتضاريس العمرانية، بدلاً من التمسك الجامد بأسلوب قتالي واحد.

ثانياً: استراتيجية حرب الاستنزاف

انتهج المسلمون في مواجهة الوجود الصليبي مقاربةً تقضي بالنيل من قدراته الاقتصادية والمكانية تدريجياً، بدلاً من المجازفة بمعارك حسم مباشرة. وارتكزت هذه المقاربة على جملة من العناصر المتكاملة، أبرزها الغارات السريعة على المناطق الزراعية وتعطيل خطوط الإمداد، مع توظيف وعورة التضاريس لتقييد حرية تحرك الفرسان الصليبيين. وقد أثبت أسامة هذا النهج في روايته عن العمليات قرب أفامية، إذ قال: «وسرنا إلى افاميه ولقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها وهو مكان لا يتصرف فيه الخيل من الحجارة والأعمدة وأصول الحيطان الخراب، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤٧). وما يستوقف المتأمِّل في هذه الرواية ليس فقط إقرار أسامة بالعجز أمام تحصُّن الخصم، بل دلالة ذلك على إدراكه المبكر لقيمة التضاريس الطبيعية سلاحاً تكتيكياً يُوظَّف في الاتجاهين.

وامتد الاستنزاف ليشمل جانباً آخر لا يقل أهمية، هو الابتكار التقني في اختراق التحصينات الصعبة. وفي هذا السياق أبدى أسامة إعجاباً صريحاً بذكاء الخصم التكتيكي في حصار المغاور، حيث قال: «وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنين وخمس مائة، فجاء شيطان من فرسانهم إلى دنكري فقال اعمل لي صندوقاً من الخشب وأنا أقعد فيه، ودلوني من الجبل إليهم بسلاسل... فعملوا له صندوقاً ودلوه بالسلاسل المعلقات إلى المغار، وأنزل كل من كان فيها إلى دنكري» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٧٠-٧١). ولا يُخفي اختيار أسامة لفظة

"شيطان" هنا ذماً صرفاً، بل ينطوي على اعتراف ضمني بأن العدو استطاع تحويل إكراهات الجغرافيا الجبلية إلى فرصة هجومية بحلٍّ هندسي غير مسبوق.

ثالثاً: استراتيجية التحالفات والدبلوماسية العسكرية

ما كانت التحالفات في تلك الحقبة وثيقةَ الصلة بالانتماءات الثابتة، بل كانت في معظمها رهينة موازين القوى المتقلِّبة وحسابات المصلحة الآنية. وقد أفرز ذلك هشاشةً في النسيج التحالفي حتى داخل المعسكر الواحد، بل وداخل الدائرة السياسية الضيقة نفسها. وخير دليل على ذلك ما رصده أسامة من صراعات داخلية محتدمة في قوله: «كل ذلك والظافر منحرف عنه، مضمر له الشر. فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص... أن يهجموا داره ويقتلوه... فلما فرغ الناس من العشاء... وقد بلغه الخبر... أحضر رجلين من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٩). وتكشف هذه الرواية أن خطر الاغتيال لم يكن يأتي من الخصم الخارجي وحده، بل كان يتربص أحياناً من داخل الطوق المقرب، مما جعل الدبلوماسية الداخلية مهمةً لا تقل خطورة عن الدبلوماسية الخارجية.

وفي المقابل، سعت الأطراف إلى إقامة قنوات اتصال مع الصليبيين تدار عبرها مصالح متبادلة وتسوَّى من خلالها نزاعات وقتية. وقد احتفظ أسامة بنموذج صارخ على هذا النوع من الدبلوماسية المصلحية، إذ روى: «وكان لأبي وعمي رحمهما الله، جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بلك... ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعه فاحسنا إليه. فلما ملك كانت لصاحب إنطاكية علينا قطيعة سامحنا بها صار أمرنا في إنطاكية نافذاً» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٢٠-١٢١). وتظهر هذه الواقعة أن المعادلة التحالفية في تلك المرحلة لم تكن تقوم على الولاء المبدئي، بل على منطق المكافأة والجزاء في سياقاته الإنسانية الأكثر تعقيداً.

رابعاً: استراتيجية الحرب النفسية

لم يكن الميدان العسكري معركةً للسيوف وحدها، بل كان في الوقت ذاته ساحةً لحسابات الروح والمعنويات، وقد أدرك قادة تلك المرحلة هذه الحقيقة إدراكاً عملياً. فالموروث الديني وُظِّف بوعي لتعزيز صمود المقاتلين حين يُعييهم الموقف ويعقد عليهم منافذ الخروج. وتجسد ذلك في مشهد الدليل جزية الذي أنقذ قافلته التائهة في الظلام بشرارة قداحته، ورواه أسامة قائلاً: «وفي الادلاء رجل يقال له جزية فيه يقظة وفطنه... فأخرج قداحة وجعل يقدح وهو على الجمل... فرأيناه على البعد فقصدنا النار حتى لحقناهم، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٣). وما يستأثر بالانتباه في هذا السياق هو ربط أسامة بين الفعل الإنساني

البسيط وإلهام إلهي خفي، إذ حوَّل بذلك موقفاً ميدانياً ضاغطاً إلى لحظة تثبت الإيمان وتعزِّز الترابط الجماعي في آن واحد.

وعلى صعيد متصل، استهدفت الحرب النفسية تقويض صورة التفوق الذاتية لدى العدو بما يُربك حساباته ويُضعف ثقته. وقد أثبت أسامة نموذجاً على ذلك في قوله: «ولما قيل لصاحب إنطاكية وهو على دمشق قد قتل المسلمون أصحابك قال ما هو صحيح، قد تركت بكفرطاب [١٧]مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم. وقضى الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نصروا على الإفرنج وقتلوا منهم مقتله عظيمة... فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذله» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١١٥-١١٦). ويبدو في هذا المشهد أن صاحب إنطاكية دفع ثمناً باهظاً لثقته المطلقة بتقديراته، فحين يُصبح الاستخفاف بالعدو مبدأً راسخاً لدى القائد، يتحوَّل ذاته إلى سلاح يُستخدم ضده.

وإلى جانب حرب الأعصاب المباشرة، اعتمدت هذه الاستراتيجية على التضليل المعلوماتي المُحكَم بوصفه أداةً لتمزيق تماسك الخصم من الداخل، ومن أبرز ما أورده أسامة في هذا الشأن مكيدة لؤلؤ التي وثَّقها في قوله: «وكان ما جرى عليهم، بمكيدة من لؤلؤ لخادم صاحب حلب... فإني أخاف من أهل البلد أن لا يطاوعني على التسليم، فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوى بهم على الحلبيين. فنفذ إليه أمير الجيوش ارزبة... وصبحهم روجار لعنه الله، كسرهم لنفاذ المشيئة» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٧٦). وقد أبلغت هذه الحادثة في دلالتها على أن الاختراق عبر الخداع الداخلي أجدى في أحيان كثيرة من المواجهة المسلحة المباشرة، وأن الحروب لا تحسم دائماً في الميدان بل تمهَّد لها في الكواليس.

المبحث الثالث: التكتيكات العسكرية التفصيلية

أولاً: تكتيكات المعارك البرية

١ - تكتيكات الفرسان

لم تقم الفلسفة القتالية في عهد أسامة على مبدأ الصدام المباشر بوصفه خياراً أوحد، بل أولت المرونة الميدانية مكانةً محوريةً في تفكيرها التكتيكي. وكان تكتيك الكر والفر[١٨] في طليعة الأدوات التي استعيض بها عن الثبات الجامد حين كان التفوق العددي لصالح الخصم. وقد أتاح الانسحاب المحسوب في وادي أبو الميمون للقوات إعادة تنظيم نفسها قبل أن تنقضَّ مجدداً على أهداف معزولة، وذلك ما رواه أسامة في قوله: «فكشفونا عن الوادي، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه فضجوا ضجة عظيمة... فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتاً» (ابن

منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤١). والجدير بالانتباه أن الانسحاب هنا لم يكن تقهقراً، بل كان جزءاً عضوياً من الهجوم ذاته؛ إذ هيَّأ الفرصة للإيقاع بالعدو حين انفصلت طلائعه عن مؤخرته.

وقد اقترنت هذه الأسلوبية بنزعة واضحة نحو بناء العمليات الهجومية على أساس استخباراتي مُحكَم لا على الحماسة غير الموجهة، وهو ما تجلَّى في حادثة عمّ أسامة الذي رفض المطاردة الفورية وآثر الكشف أولاً، حيث قال: «فقلت لعمي على أمرك آخذ أصحابنا واتبعهم اقلعهم وهم غير بعيدين. قال لا وكان أخبر مني بالحرب في الشام إفرنجي لا يعرف شيزر؟ هذه مكيدة. ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال أمضيا اكشفا تل ملح وكان مكمناً للإفرنج» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٥٧–٥٨). وقد أثبت الواقع صواب هذا الحذر، مما يكشف أن الخبرة الحربية المتراكمة ليست حكمةً نظرية، بل هي الحاسة التي تميِّز بين الفرصة الحقيقية والفخ المنصوب.

وعلى صعيد ثالث، وظَّف المقاتلون مناورات التطويق بالتنسيق بين الفرسان والمشاة، مستهدفين استدراج الخصم بعيداً عن ملاذه الحصين قبل الإيقاع به. وتشهد على ذلك رواية معركة عسقلان، حيث قال أسامة: «فاحتطنا بهم وعجلنا هم عن طي خيامهم فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين. فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من الطفوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٦–١٧). وفي هذا المشهد يبدو التطويق وسيلةً لا للإحاطة الجسدية فحسب، بل لتقليص الخيارات المتاحة أمام الخصم حتى يُكره على الحركة المكشوفة.

٢– تكتيكات المشاة

اضطلع المشاة بدور لا يكاد يُذكر في كثير من الروايات التقليدية رغم أنهم شكَّلوا عصب الصمود الدفاعي في المواقف الحرجة. وقد برز الرماة منهم على وجه الخصوص في تأمين الحصون وتعطيل محاولات الاقتحام، وهو ما اكتوى به المهاجمون أنفسهم كما أقر أسامة في قوله: «وبقي الحائط الجواني كما هو فوقفنا إلى أن خيمت علينا الشمس ورجعنا إلى خيامنا، وقد نالنا من الحجارة أذى كثير» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٧٥). وليس في هذه الرواية مجرد توصيف لمشقة قتالية، بل اعتراف صريح بأن نيران الدفاع من الأسوار كانت قادرة على شلِّ الهجوم الأكثر تنظيماً.

وفي السياق ذاته، رصدت المصادر انضباط المشاة في مواجهة هجمات الفرسان المدرعة وإعاقتهم عن تحقيق أهدافهم رغم تكرار المحاولات، وقد أثبت ذلك أسامة في قوله: «فحملوا على الناس عدة حملات، فقلت منهم سبعون حصاناً ما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٦٧). وما يلفت النظر في هذه الرواية هو الرقم الذي أورده أسامة؛ فسبعون

حصاناً تعجز عن إزاحة مجموعة مشاة متماسكة دليلٌ على أن الثبات الجماعي المنضبط قد يُعادل في أثره التفوق التسليحي.

٣- تكتيكات الحصار

تعد عمليات الحصار من أبرز ما كشف عنه "الاعتبار" من مستوى هندسي متقدم، إذ لم تكن مجرد جلوس أمام الأسوار انتظاراً للاستسلام، بل تضمَّنت تقنيات محسوبة لتقويض البنية الدفاعية للمنشآت الحصينة. وقد احتفظ أسامة بوصف بالغ الدقة لتقنية النقب[١٩]، تلك العملية التي تجمع بين الحفر تحت الأساسات والتدعيم الخشبي ثم الإحراق في مرحلة بعينها، وذلك في قوله: «فرأيت حكمة عظيمة قد نقبوا من الخندق إلى الباشورة[٢٠] وأقاموا في جوانب النقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع من تهدم ما فوقها ونظموا النقب بالأخشاب كذلك إلى أساس البشورة وعلقوه وبلغوا أساس البرج وحملوه على الأخشاب... وادخلوا فيه النار... فثارت النار فصار يسقط ما بين الحجارة من تكحيل الكلس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٧٤). ولا يتوقف أهمية هذا النص عند حدود التوثيق التاريخي، بل يمتد ليكشف عن مستوى عالٍ من الهندسة التطبيقية في ميدان الحرب، تمثَّل في القدرة على تحريك الأعباء الهيكلية الهائلة عبر رافعات خشبية قبل إشعال النار.

وتكاملت هذه التقنية مع استخدام المجانيق التي أضافت بعداً تدميرياً مختلفاً، إذ استهدفت العمق المعماري بدلاً من الجدار الخارجي وحده. وقد وصف أسامة ضراوة هذه الآلة بقوله: «نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل... وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً ولقد رموا مرة دار صاحب لي... فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١١٣). وما يوحيه هذا الوصف، فضلاً عن القوة التدميرية المادية، هو الأثر المعنوي الذي تخلِّفه الضربة الواحدة القاضية على روح المدافعين.

ثانياً: الاستخبارات والاستطلاع

تقدم روايات أسامة ما يكفي من الشواهد على أن الانتصار في الميدان لم يكن نتاج الشجاعة وحدها، بل كان في أحيان كثيرة ثمرةً مباشرة لجودة المعلومات التي يمتلكها القائد قبل المعركة. وقد أتاحت وحدات الاستطلاع تحديد مواضع الخصم مسبقاً، مما فتح الباب أمام قرارات أكثر رشاداً في أوقات الضغط. ولعل أجلى الأمثلة على ذلك ما أورده أسامة من إرسال عمِّه فارسين استطلاعيين قبل الشروع في المطاردة: «ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال أمضيا اكشفا تل ملح وكان مكمناً للإفرنج. فلما شارفاه خرج عليها عسكر انطاكيه جميعه» (ابن منقذ،

٢٠١٠، ص. ٥٧). وقد أثبت هذا القرار أن الفارق بين النصر والكمين[٢١] لم يكن سوى خطوة استطلاعية واحدة، مما يضع الاستخبارات في قلب العملية العسكرية لا في هامشها.

وقد ارتبطت بهذا البعد الاستخباراتي قدرةٌ على إعادة توزيع المهام لحظةَ اكتشاف موقف مستجد، وهو ما جسدته واقعة الغارة على البلد حين تقسمت مهام القادة فور استيعاب المشهد: «فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا عليه... فلما دنونا من الإفرنج قال لي أمض أنت أدخل من السكر وعبر هو من ناحية الإفرنج» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٥٦). وتكشف هذه الرواية أن التكيُّف الآني مع المعطيات الجديدة كان سمةً قيادية راسخة، لا استثناءً طارئاً.

ثالثاً: اللوجستيات والإمداد

غالباً ما تهمَل الجوانب اللوجستية في كتابات المؤرخين الكلاسيكيين، لكن روايات أسامة أبقت على طائفة من المشاهد التي تظهر مدى تعقيد إدارة التحركات العسكرية وتأمين الموارد في ميدان عمل متقلِّب. وكانت حماية الأموال خلال التنقلات الطويلة من أشد هذه التحديات حساسيةً، وقد سجل أسامة واقعةً كادت تفضي إلى خسارة فادحة بسبب زلَّة بغل واحد، في قوله: «فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي مجنوب معي وسلمته إلى غلام... فزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج، فركبت حصاني... ورجعت إلى المنزلة وإذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٣-١٤). وفي هذا المشهد الذي ينتهي بنجاة غير متوقعة ما يُنبه إلى أن إدارة الخطُط اللوجستية اعتمدت على الحذر البشري في المقام الأول، لا على ترتيبات مؤسسية راسخة.

وفي جانب التموين خلال الحملات، تبيَّن التفاوت الحاد في مستوى الاستعداد بين المجموعات المختلفة، وهو ما جلَّته حادثة بني أُبي الذين وصفهم أسامة في حالة إنهاك بالغ: «فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمراً عظيماً قد يبست جلودهم على عظامهم... فوقفت حتى جاء الجمال، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٢-١٣). وتفصح هذه الرواية عن نمطين متباينين في التنظيم العسكري: قوة تحمل زادها وتدير موردها بانضباط، وأخرى تتحرك بلا مخزون يكفيها، مما يضع الإمداد في مرتبة لا تقل أهمية عن التسليح.

رابعاً: القيادة والسيطرة

تقدم روايات "الاعتبار" نماذج قيادية متعددة تظهر أن القائد الناجح لم يكن ذلك الذي يملك أكبر قدر من الصلاحية، بل ذلك الذي يُحسن الموازنة بين الحزم اللازم في الموقف والتقدير الإنساني لمن تحت إمرته. وخير مثال على ذلك ما أورده أسامة من حوار بين عمِّه عز الدين أبي العساكر سلطان والفارس حمدات الذي أبى القعود رغم كِبر سنه، إذ قال له الأمير: «يا حمدات

كبرت وضعفت... فلو لزمت مسجدك... فقال يا أمير والله لا تطاوعني نفسي على القعود في البيت وقتلي على فرسي أشهى إلي من الموت على فرشي. قال الأمر لك» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤٩-٥٠). وفي هذا الاستجابة نموذج قيادي يقوم على الاحترام المتبادل لا على الطاعة العمياء، فالقائد الذي يُسلِّم "الأمر" لمقاتله المخضرم يُقر ضمناً بأن الإرادة الشخصية جزء من القوة القتالية لا عائق أمامها.

وفي زاوية أخرى لا تقل أهمية، كشفت المواقف الطارئة عن نماذج في اتخاذ القرار السريع في ظل ضغط بالغ، لا سيما في سيناريوهات الاقتحام المفاجئ التي تستوجب توزيع المهام فورياً دون تردد، وهو ما سبق الاستشهاد به في واقعة غارة عسكر طرابلس (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٥٦). أما انضباط القوات في الميدان، فقد شكَّل في حد ذاته سلاحاً استراتيجياً، وهو ما شهد به دنكري نفسه مُقراً بعجز فرسانه: «وهؤلاء سرجند ما تقدرون تقلعون من موضعهم!... فحملوا على الناس عدة حملات، فقلت منهم سبعون حصاناً ما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٦٧). وإقرار الخصم بصمود خصمه أبلغ في دلالته على جودة الانضباط القتالي من أي شهادة من الطرف المنتصر.

وحين تقرأ شواهد "الاعتبار" مجتمعةً، يتضح أن التحصين المعماري والذكاء الميداني لم يكونا عنصرين متوازيين، بل كانا وجهي معادلة واحدة في مواجهة الوجود الصليبي؛ فالإبداع التكتيكي لم يُنجز مفعوله إلا حين اقترن بانضباط قتالي راسخ، وهو ما جعل كتاب أسامة وثيقةً تتجاوز في قيمتها الأرشيفية حدود السرد التاريخي المجرد، لتبلغ مستوى التحليل الميداني التطبيقي.

المبحث الرابع: العوامل المؤثرة في الاستراتيجيات العسكرية

أولاً: العوامل الجغرافية والمناخية

لا يمكن دراسة العمليات العسكرية في بلاد الشام ومصر بمعزل عن البيئة الجغرافية والمناخية التي احتضنتها، إذ كانت هذه البيئة تملي على القادة خياراتهم وتضيِّق هامش مناورتهم في آن واحد. وما تركه أسامة بن منقذ من شهادات ميدانية يكشف بجلاء كيف انعكست التضاريس المفتوحة على أسلوب تسيير القوات، واعتمادها على الإشارات الصوتية وسيلةً للتنسيق في فضاء القتال الرحيب. بيد أن المشهد كان يتبدل جذرياً حين تقترب الجيوش من المراكز الحضرية؛ فالمدن تعيد رسم معادلة التقدير الدفاعي من أساسها، وهو ما استشفَّه أسامة من تساؤل أحد رجاله الدال: «ويعارضونا إلى أن وصلنا عسقلان ما خفناهم نخافهم الآن ونحن عندى مدينتنا؟» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٦).

وعلى صعيد آخر، كشفت مسارات الانسحاب عن وجه مغاير من وجوه الجغرافيا، وجهٍ عسير يُثقل كاهل الجيوش المنسحبة بدلاً من أن يمنحها ملاذاً. فقد جسد وادي موسى بمضائقه الوعرة نموذجاً صارخاً على هذا الواقع، حين رسم أسامة مشهد الانسحاب عبره بعبارات لا تخلو من مرارة: «فسرنا أشد من الموت... إلى أن وصلنا جبال بني فهيد... وطلعنا في طرقات ضيقه وعره» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٢٧). وفي سياق مختلف تماماً، أبدت المرتفعات قيمتها الاستراتيجية حين يتعلق الأمر بنصب الكمائن وإحكام المراقبة، وهو ما دفع القادة إلى التحوط من التلال المحيطة بشيزر بصورة مستمرة؛ فقد روى أسامة أن أحدهم «دعا فارسين من الجند... أمضيا اكشفا تل ملح وكان مكمنا للإفرنج» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٥٧).

ولم تكن الجغرافيا وحدها هي المتغير الحاكم، بل شاركها المناخ في رسم ملامح الاستراتيجية العسكرية؛ فعمليات الحصار الناري اشترطت جفاف المواد الخشبية المستخدمة شرطاً لا تنازل عنه، وقد أبان أسامة عن هذا البعد التقني–المناخي في روايته: «وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا النقب بذلك الخشب واصبحوا طرحوا فيه النار» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٧٣). وفضلاً عن ذلك، كانت نقاط الضعف الجغرافية في التحصينات — من أبواب وكهوف ومغارات منيعة — تستدعي ابتكارات تقنية تتجاوز ما تفرضه الطبيعة من عقبات (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤٧، ٧٠)، مما يدل على أن الفكر العسكري آنذاك لم يستسلم للواقع الجغرافي بل راح يُبدع في مواجهته.

ثانياً: العوامل التقنية والتكنولوجية

إن تأمل تجربة أسامة الميدانية يُفضي إلى استنتاج محوري مفاده أن الحقبة الصليبية شهدت تطوراً ملموساً وغير مسبوق في منظومتي السلاح والحصار معاً. ففي ميدان المواجهات المكشوفة، احتفظ الرمح بمكانته بوصفه السلاح الحاسم الذي يفصل المعارك، وقد رسم أسامة صورة بالغة التعبير عن قوته الاختراقية الهائلة في قوله: «فطعنه فارس من الإفرنج... في صدره اخرج الرمح من ظهره» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٢)، فضلاً عما أشار إليه من تطور مستمر في أساليب توجيه الطعنة بما يرفع من نجاعتها القتالية (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤٢).

ومن الأمثلة اللافتة في باب الأسلحة البيضاء، تلك الحادثة التي رصدها أسامة لفارس كردي أبلى بلاءً حسناً حين استطاعت طعنة رمحه أن تخترق درع خصمه الفرنجي وتدفع قطعةً من الزرد[٢٢] إلى جوفه، فأردته قتيلاً: «وطعن رجل... فارساً من الإفرنج ادخل قطعه من الزرد في جوفه وقتله» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤٨). ومن الرمح إلى المجنيق، تتسع الصورة التكنولوجية لتشمل ما وظَّفه الصليبيون من آلات حصار ضخمة قادرة على تهديم المنشآت وتسوية الأسوار

بالأرض، فقد رأى أسامة بأم عينيه كيف «نصبوا عليها مجانيق هائلة... ترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١١٣).

وإلى جانب هذه الآلات الضخمة، ظهر نوع من الرماح المؤلَّفة [٢٣] التي تميَّزت بأطوالها الاستثنائية الخارقة للمألوف، إذ أوضح أسامة أن هذه الرماح كانت تصنع «بحيث يصير طوله عشرين ذراعاً أو ثمانية عشر ذراعاً» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٠١). وفي المقابل، لم يكن المسلمون أقل حظاً في الابتكار التقني؛ فقد أتقنوا فنون النقب الهندسي الرامي إلى تقويض أسوار الحصون من أسفلها، معتمدين في ذلك أسلوباً محكماً يقضي بـ«نقبوا من الخندق إلى الباشورة... وحشوا النقب بذلك الخشب واصبحوا طرحوا فيه النار» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٧٣)، مما يدل على أن الطرفين خاضا سباقاً تقنياً حقيقياً لم تقتصر ساحته على ميدان الوغى.

ثالثاً: العوامل البشرية والثقافية

إذا كانت الجغرافيا والتقنية تمثِّلان البنية المادية للحرب، فإن الإنسان بطاقته النفسية وقيمه الثقافية هو الذي يُحيي هذه البنية ويمنحها معناها الحقيقي. وقد آمن أسامة بن منقذ إيماناً راسخاً بأن الشجاعة في جوهرها ثمرة للعقل والحنكة لا انعكاس لاندفاع عاطفي أو نزوة طائشة، وهذا ما جلَّاه في حواره الشهير مع أستاذه ابن المنيرة، حين أكد أن العقل هو المحرك الحقيقي للفارس نحو الإقدام، إذ يحمله على اقتحام المخاطر أنفةً من وصمة الجبن لا تهوراً ودون تفكير، وقد صاغ ذلك بقوله: «إنما العقل لا يحضر وقت القتال... فأن العقل هو الذي يحمل على الأقدام» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٨٥).

وترجم هذا التصور النظري عن الشجاعة العاقلة إلى يقظة ميدانية دائمة واستعداد قتالي متواصل، بعيداً عن التراخي والغفلة؛ فقد صوَّر أسامة حاله بقوله: «فلا جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني... وكزاغندي [٢٤] فيه زرديتان مطبقة» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٩٩–١٠٠)، دلالةً على أنه لم يكن يفصل يوماً بين الاستعداد والحضور. وتتجلى الأبعاد الإنسانية للمؤسسة العسكرية في تلك الحقبة بصورة أجلى حين يطالعنا مشهد الفداء ونكران الذات الذي رواه أحد المقاتلين بنفسه: «فدخلت بينه وبين مولاي لأفديه بنفسي فطعنني» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٥٣)، فهذا الفداء لم يكن مجرد سلوك فردي طارئ، بل كان تعبيراً عن منظومة قيمية راسخة قوامها الولاء المطلق وتماسك الروابط البشرية التي أسست لبنية المؤسسة العسكرية وصانت تماسكها.

رابعاً: العوامل الدينية والأيديولوجية

تبقى العوامل الدينية والأيديولوجية من أعمق المحركات وأبعدها أثراً في تشكيل الفعل القتالي وتحديد مآلاته. وقد رأى أسامة أن الجهاد في سبيل الله غايةٌ أخروية تعلو على كل اعتبار دنيوي وتتجاوزه، وهو ما جلَّاه في رثائه لأخيه الذي جسد هذا المعنى بحياته: «وكان رحمه الله من الفرسان المسلمين يقاتل للدين لا الدنيا» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٧). ولم يكن هذا التوجه مقتصراً على الفرسان والمحاربين المحترفين، بل كان يمتد ليطال الفقهاء والعلماء الزهاد الذين خاضوا غمار المعارك بروح لا تعرف التردد، وقد أبان أسامة عن ذلك في مشهد مؤثر حين قال أحدهم لصاحبه: «فإلى متى نحن وقوف؟» فأجاب الآخر: «سر على أسم الله تعالى. فتقدما قاتلا حتى قتلا» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٩٥).

وعلى صعيد أعمق من الحوافز القتالية، وثَّق النص يقيناً عميقاً بالعناية الإلهية والقدر، كان يمنح القادة استقراراً نفسياً نادراً في أكثر اللحظات ضراوةً وضغطاً. فقد روى أسامة أن والده تشبث بهذا اليقين واستمد منه سكينته إذ قال: «يا ولدي، في طالعي أنني لا ارتاع» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٥٦). وانتهى التصور العسكري الذي بلوره أسامة إلى خلاصة جامعة مفادها أن النصر في نهاية المطاف مقيَّد بالإرادة الإلهية لا بالتخطيط البشري وحده، وقد صاغ ذلك في عبارة بالغة الدلالة: «النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير... الحرب تدبر نفسها وصدق» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٤٧–١٤٨). وهكذا يتضح أن الفكر العسكري عند أسامة لم يكن مجرد ممارسة ميدانية براغماتية، بل كان رؤيةً متكاملة تتشابك فيها أبعاد الدنيا والآخرة في نسيج واحد لا انفصام فيه.

المبحث الخامس: المقارنة بين الاستراتيجيات الإسلامية والصليبية من خلال كتاب "الاعتبار"

يحتل كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ مكانةً متفردة في المدونة التاريخية والعسكرية العربية الوسيطة، لا لكونه سرداً لوقائع الحرب فحسب، بل لأنه شهادة مشارك أمضى نحو سبعة عقود في خضم الأحداث القتالية التي شهدها القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وقد هيَّأت هذه العقود المديدة لصاحبها ما لم يتوفر لكثير من المؤرخين، إذ منحته القدرة على مراقبة الممارسات القتالية لكلا المعسكرين الإسلامي والصليبي بعين شاهد لا بقلم ناقل. غير أن قراءة هذا التحليل تستلزم وعياً نقدياً بأن ابن منقذ كتب من داخل المشهد لا من خارجه، ومن موقع طرف لا من برج المحايد.

أولاً: أوجه التشابه الاستراتيجي

ثمة خيط جامع يربط الممارستين العسكريتين الإسلامية والصليبية، وهو ما تكشفه قراءة متأنية لنصوص "الاعتبار" بعيداً عن ثنائية التفوق والنقص. فمن أبرز ما اشترك فيه الطرفان توظيف أسلوب قطع الموارد الحيوية أداةً للإنهاك التدريجي بديلاً عن الاشتباك المباشر المكلف. وقد سجل ابن منقذ هذا الأسلوب بتفصيل لافت في روايته لعملية تطويق إسبهسلار مودود للقوات الصليبية وتجفيف مصادر مياهها بصورة ممنهجة: «فنزلوا على تل الترمسي فمنعوهم الورود كما عملوا بالأمس فرحلوا في الليل ونزلوا على تل التلول والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير فاحتاطوا بالماء ومنعوهم من الورود [...] فقاتل وهو راجل حتى وصل أصحابه» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٦٩). وما ينطوي عليه هذا المشهد من دلالة هو أن وعياً مشتركاً بمنطق الإجهاد المادي كان سائداً لدى الجانبين، حتى غدا هذا الأسلوب جزءاً من ثقافة الحرب لا مجرد حيلة ظرفية.

والقاسم الاستراتيجي الآخر الذي جمع المعسكرين تمثَّل في الحرص المتبادل على استطلاع الأرض المرتفعة واستجلاء خباياها قبل الإقدام على الهجوم، درءاً لمفاجآت الكمائن. وفي هذا الإطار، وثَّق ابن منقذ موقفاً دالاً للفرسان الصليبيين آثروا فيه التريث والمراقبة على الاندفاع حين لم تتضح لهم معالم الأرض، فجاء في النص: «وصلهم أوائل الفرنج وهم لعنهم الله، أكبر الناس احترازاً في الحرب فصعدوا على الرابية وقفوا عليها [...] لا ينزل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٧). وهذا الاشتراك في قيمة الحذر الميداني يؤكد أن استغلال التضاريس وصون القوات لم يكن حكراً على طرف دون الآخر، بل كان أصلاً راسخاً في الثقافة العسكرية لكلا المعسكرين.

ثانياً: أوجه الاختلاف الجوهري

على الرغم من هذه القواسم المشتركة، لم يغفل ابن منقذ عن رصد تباينات هيكلية عميقة في فلسفة الحرب بين الجانبين. ففي ما يخص مرونة التشكيلات القتالية، أبدى الجانب الإسلامي في مناسبات عدة قدرةً على التنسيق بين المشاة والخيالة وفق متطلبات المعركة، في حين انتهج الطرف الصليبي — في أغلب ما رواه ابن منقذ — أسلوباً يُعلي من شأن الفارس النظامي ويجعله محور التشكيل القتالي. وقد كشف حادث عسقلان عن هذا التوتر بصورة حادة، حين قدم ابن منقذ خطةً دفاعيةً مرنة تقوم على سحب المشاة إلى مأمن الأسوار وإبقاء الخيالة في الميدان لصد الهجوم، فرفض المشاة الانسحاب فدفعوا الثمن غالياً: «فدرت على سرب الرجالة وقلت يا صاحبنا ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم [...] فامتنعوا من الرجوع فتركتهم ومضيت إلى الإفرنج

[...] فرجع الإفرنج حملوا على أولئك فقتلوهم [...] فانهزمت الرجالة الذين رددتهم فما رجعوا ورموا تراسهم» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٦). والذي يُستخلص من هذا الحادث أنه يكشف عن إشكالية تنسيق داخلي حادة لا عن مقارنة تفاضلية مطلقة بين أسلوبين.

أما البنية القيادية وتوزيع الأدوار، فهي الحقل الذي تبدو فيه الرؤية الانتقادية لابن منقذ أشد وضوحاً وربما أكثر شخصية. فقد وصف احتكار الفارس الصليبي للسلطة بأبعادها الثلاثة العسكرية والقضائية والإدارية في آن واحد، وأسبغ على ذلك حكماً قيمياً مباشراً: «والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا للفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكمة» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٦٤-٦٥). بيد أن الباحث المتأني يُدرك أن هذه العبارة تحمل طابع الحكم الثقافي الذاتي أكثر مما تمثل وصفاً موضوعياً دقيقاً للنظم الصليبية، وهو ما يستدعي مساءلته في ضوء مصادر صليبية معاصرة تتيح تصويباً مقارناً للصورة.

ثالثاً: التطور التسليحي والبعد الاستخباراتي

من اللافت أن ابن منقذ لم يربط التطور التسليحي الذي رصده بمحور الصراع الصليبي-الإسلامي وحده، بل أبان أن ذلك التطور كان جارياً أيضاً في رحى الصراعات الداخلية بين الإمارات الإسلامية المتنافسة. فحين تصف رواياته مواجهة قوات حماة وحمص لإمارة شيزر، يُفيد بأن عسكر الأولى وظّف رماحاً مطوَّلة مؤلَّفة لم تكن مألوفة من قبل: «وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح إلى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعاً أو ثمانية عشر ذراعاً» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٠١). وهذا السياق يستوجب التأكيد على أن هذا الابتكار التقني نشأ في رحم الخلافات الداخلية الإسلامية، لا في إطار التأثر أو الاقتباس من العدو الصليبي، وهو توضيح يُعيد ضبط الفهم الشائع أحياناً من أن التطور العسكري في هذه الحقبة كان ذا اتجاه واحد.

وعلى الصعيد الاستخباراتي، أضاء النص جانباً من النضج الميداني لدى بعض القادة المسلمين، إذ أظهر قدرةً على استباق مخططات الخصم قبل أن تتكشف. والمثال الذي يسوقه ابن منقذ في هذا السياق لا يخلو من إحكام؛ فقد أدرك عمّه في لحظة حاسمة أن المجموعة الصليبية الصغيرة الظاهرة ليست غير طُعم مدروس، فأمسك عن المطاردة وأرسل فارسين لكشف التل المشبوه فتأكدت حدسه: «هذه مكيدة. ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال أمضيا اكشفا تل ملح وكان مكمناً للإفرنج» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٥٧). وفي هذا الموقف ما يدل على أن ثمة

قيادات إسلامية تجاوزت الاندفاع الغريزي نحو التقدير المحسوب، وهو ما يرقى بالفعل العسكري من دائرة الشجاعة الفردية إلى أفق الاحتراف الاستراتيجي.

رابعاً: عوامل الحسم في المعارك

خلص ابن منقذ من استيعاب عقوده الطويلة في الحرب إلى أن المبادرة التكتيكية والمعلومة الميدانية الدقيقة كانتا في الغالب أحسم أثراً من الكثرة العددية وضخامة الحشود. وقد جسد نصر معركة مثكير قرب كفرطاب هذه الخلاصة بصورة قاطعة، حين تلقى قائد الإفرنج خبر الهزيمة بذهول تام لأنه أحسب أن القوة التي تركها هناك كافية وحدها لصد المسلمين جميعاً: «فسار المسلمون عليهم فالتقوا على مثكير، فنصر الله سبحانه الإسلام وقتلوا الإفرنج جميعهم [...] ولما قيل لصاحب إنطاكية [...] قال ما هو صحيح، قد تركت بكفرطاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١١٥-١١٦). وفي هذا المشهد دليل ناطق على أن التقدير الخاطئ للموقف كان يُفضي إلى كوارث لا تعوَّض بالكثرة ولا بالعتاد.

وقد صاغ ابن منقذ فهمه العميق لديناميكيات الحرب في عبارة جمعت ظاهرها التوكل الديني وباطنها الاعتراف الصريح بمحدودية التخطيط البشري أمام المتغيرات التي لا تحسب: «النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير [...] فيقول يا بني الحرب تدبر نفسها وصدق» (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ١٤٧). غير أن هذا التوكل لم يكن بمعزل عن وعي نقدي بالإخفاقات الذاتية؛ فقد أدرك ابن منقذ في الوقت ذاته أن غياب التنسيق القيادي وتشرذم الولاءات أضاعا على المسلمين مناسبات حاسمة، وذلك على الرغم من توافر البسالة الفردية وصدق العزيمة (ابن منقذ، ٢٠١٠، ص. ٤). وهكذا يتضح أن رؤيته النهائية للحرب كانت أكثر تركيباً مما تبدو عليه عند القراءة الأولى؛ رؤيةٌ تمزج بين الإيمان والنقد، وبين الاعتراف بعظمة الإنجاز وتشخيص مواطن القصور.

الخاتمة

تقف هذه الدراسة عند نهاية مسارها التحليلي المعمَّق لنصوص كتاب "الاعتبار" حاملةً جملةً من النتائج الجوهرية المتشابكة، التي لا تنفصل بعضها عن بعض بقدر ما تتضافر في إعادة تأطير فهمنا لهذا المصدر الاستثنائي وللحقبة التاريخية الثرية التي يُوثِّقها.

على المستوى الأول، بات جلياً أن قيمة هذا الكتاب تتجاوز مما عُهد إليه من تصنيفات سائدة، سواء أكان ذلك في خانة السيرة الذاتية الأدبية أم في دائرة التسجيل التاريخي المجرد. فهو في جوهره وثيقة عسكرية تحليلية تطبيقية نادرة الحضور في تراثنا العربي الوسيط، تنطوي على منظومة فكرية متماسكة قوامها التكامل الضروري بين محاور متعددة لا يصمد أي منها في

غياب الآخر. فالتحصين المعماري لا يبلغ غايته إلا حين يُكمله حسن المناورة في الميدان المفتوح، والاستخبارات الدقيقة وقود للقرار التكتيكي السليم لا أثر له إن استهين به، والدبلوماسية البراغماتية توسع هامش الخيارات الاستراتيجية في اللحظات التي يضيق فيها الخيار المسلح، فيما تقف الدوافع الدينية والمعنوية نداً للتسليح المادي في تحديد صمود المقاتل أو انهياره.

وعلى المستوى الثاني، جلَّت الدراسة حقيقة مغايرة لما يُصوِّره الخطاب التبسيطي المعتاد؛ إذ لم يكن مشهد الصراع في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري ثنائياً مقطوعاً بين معسكر إسلامي متجانس ومعسكر صليبي وافد، بل كان نسيجاً متشعِّب الخيوط تتقاطع فيه تنافسات داخلية بين الإمارات الإسلامية لم تكن أقل وطأةً في أحيان كثيرة من الضغط الصليبي القادم من الخارج. وقد أفرز هذا الواقع المركَّب بيئةً استراتيجية بالغة التعقيد، اقتضت من القادة قدراً عالياً من المرونة التكيُّفية والحسابات البراغماتية التي تتعارض في صميمها مع ما يدعيه الخطاب الأيديولوجي الصارم من أحكام مطلقة.

وعلى المستوى الثالث، كشفت الدراسة أن غياب التنسيق القيادي وتشتت الولاءات السياسية كانا عاملَين متكررين في إضاعة الفرص العسكرية الحاسمة، وذلك حتى في الحالات التي توافرت فيها البسالة الفردية والكفاءة الميدانية معاً. ومؤدى هذا الاستنتاج أن الضعف لم يكن مقيماً في العنصر البشري المقاتل الذي أثبت جدارته في مناسبات لا تحصى، بل كان أصله الأعمق في البنية المؤسسية للتحالف وافتقارها إلى قيادة جامعة توحد الجهود وتوجه الطاقات.

أما على صعيد المقارنة بين الأسلوبين الإسلامي والصليبي، فقد كشف التحليل عن طبقتين متمايزتين في آن واحد؛ طبقة القواسم المشتركة التي فرضتها إكراهات الجغرافيا وطبيعة الحرب ذاتها، من استثمار التضاريس المرتفعة واعتماد الاستطلاع الاستباقي وتوظيف قطع الموارد الحيوية، وطبقة التمايز الهيكلي الجوهري في فلسفة الحرب، الذي طال البنيةَ القيادية وتوزيع الأدوار وآليات اتخاذ القرار. بيد أن الأمانة المنهجية تستوجب تسجيل تحفُّظ نقدي جوهري على هذه الاستنتاجات المقارنة، إذ تستند في معظمها إلى منظور مؤلف واحد لم يكن يوماً مؤرخاً محايداً، بل كان طرفاً فاعلاً في ذلك الصراع بكل ما ينجم عن ذلك من احتمالات التحيُّز المقصود وغير المقصود.

ولعل أبرز ما يمنح "الاعتبار" أفضلية معرفية على سائر مصادر عصره أن صاحبه أبدى وعياً منهجياً مبكراً ونادراً بوجوب التمييز بين ما استقاه من مشاهدة مباشرة وما وصله عن طريق الرواية والنقل، بل إنه لم يتحرج من الإقرار صراحةً بحدود ذاكرته واحتمال وقوع النسيان فيما

يرويه، وهو ما أضفى على نصه مصداقيةً أكاديميةً تفوق ما تتيحه المصادر الرسمية التي درجت على تقديم رواياتها في ثوب اليقين المطلق الذي لا يقبل المساءلة.

وتنتهي هذه الدراسة إلى تأكيد راسخ مفاده أن الاستثمار المعرفي الكامل لهذا الكتاب النفيس لن يتحقق إلا عبر مسارَين متلازمَين لا غنى عن أحدهما: أولهما مقاربته قراءةً نقديةً يقظةً تدرك موقع مؤلفه الذاتي وما ينبثق عنه من تحيُّزات محتملة، وثانيهما مواجهته بمصادر الطرف الآخر من الصليبيين والبيزنطيين لكشف ما قد تحجبه عدسة الرواية الأحادية عن الأبصار. وفي هذا التلاقي المنهجي بين المسارَين تتفتح أمام الباحثين آفاق دراسات مستقبلية مقارنة تعيد قراءة تلك الحقبة البالغة الأهمية من زوايا متعددة ومتكاملة، مُقربةً إيانا خطوةً أوسع نحو فهم أكثر شمولاً وإنصافاً لطبيعة الصراع والتلاقي الحضاري في بلاد الشام على امتداد القرنين السادس والسابع الهجريين.

الهوامش

---

[٢]) مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري — أحد أبرز أمراء بني منقذ الذين تناوبوا على حكم قلعة شيزر، وقد جمع بين الفروسية والأدب في شخصية نادرة التكوين، حتى وصفه الذهبي بأنه كان «بطلاً شجاعاً، وشاعراً مفلقاً، له تصانيف كثيرة.» ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، (د.م: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج٢١، ص٢١٥.

[٣]) أمة عظيمة من شعوب أوروبا، كانوا القوام الأساسي للحروب الصليبية.ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية،(بيروت:د.ت)، ج ٤، ص ٤١٠.

[٤]) بفتح أوله وسكون ثانية وفتح الزاي وراء، قلعة مشهورة هي اليوم حصينة جداً، فوق حماة، وبينها وبين حماة يوم، يحيط بها العاصي كالسوار، وهي قديمة جداً." ينظر:ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ط٢، دار صادر، (بيروت،: ١٩٩٥)م، ج ٣، ص ٣٨٣.

[٥]) عسقلان مدينة ساحلية من أعمال فلسطين على ضفاف البحر المتوسط، وكانت تضطلع بدور دفاعي محوري في مواجهة المد الصليبي، وقد أشار إليها المقريزي بقوله: «بفتح أوله وسكون ثانيه وقاف ولام، مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر، تسمى عروس الشام، وهي كانت ثغراً عظيماً في وجه الإفرنج.» ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٤١٨هـ)، ج١، ص٣١٨.

[٦])بفتح أوله وسكون ثانيه وقاف ولام، مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر، تسمى عروس الشام، وهي كانت ثغراً عظيماً في وجه الإفرنج."ينظر المقريزي:: تقي الدين، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١،÷دار الكتب العلمية،(بيروت :١٤١٨هـ)، ج ١، ص ٣١٨

[٧])الرجالة صنف من أصناف المقاتلين يُشكّلون عماد الثبات الدفاعي وقلب تشكيل الجيش، وهم الذين يخوضون المعركة على أقدامهم لا على ظهور الخيل. وقد حدد الفيروزآبادي معناهم بقوله: «بالتشديد، هم الجماعةُ الذين يمشون على أَرجلهم فِي الْحرب، وهم قوامُ العسكر فِي الثبات والحصار.» ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، (بيروت: د.ت)، ص٩٢١.

[٨]) وقعة البلاط من المعارك الفاصلة التي أوقفت المد الصليبي في تلك المرحلة، وقد تحولت إلى محطة مضيئة في تاريخ الجهاد الإسلامي بما أسفرت عنه من قتل روجار صاحب أنطاكية وتدمير جيشه. وقد لخص ابن الأثير أحداثها بقوله: «كانت في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة بين المسلمين بقيادة إيلغازي بن أرتق وبين الإفرنج بقيادة روجار صاحب أنطاكية، فهزمهم الله هزيماً قبيحاً وقتل روجار وأصحابه عن آخرهم، وكان يوماً مشهوداً.» ينظر: عز الدين ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج٩، ص٢٤٧.

[٩]) إيلغازي بن أرتق أحد أبطال الدولة الأرتقية الذين حفر الجهاد اسمَه في صفحات التاريخ، ولا سيما بعد انتصاره الكبير في معركة البلاط. وقد أثنى عليه الذهبي قائلاً: «صاحب ماردين... كان بطلاً شجاعاً، وهو الذي نصر الله به الإسلام يوم البلاط وقتل روجار صاحب أنطاكية.» ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج٣٥، ص٢١٤.

[١٠]) أنطاكية مدينة شامية عظيمة تتقلّبت بين أحضان الحضارات المتعاقبة، فكانت عاصمةً بيزنطية ثم ثغراً إسلامياً ثم قاعدة صليبية، وقد جلا ياقوت الحموي مكانتها قائلاً: «هي قصبة بلاد العواصم من الثغور الشامية، وهي مدينة عظمى ذات سور وفصيل، وللأسوار أبنية محكمة، ولها خمسة أبواب... وكانت أنطاكية كرسي ملك الروم، ومنها كانوا يسيرون إلى القسطنطينية ومقدونية وغير ذلك.» ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت: د.ت)، ج١، ص٢٦٦

[١١]) روجار صاحب أنطاكية واحد من دهاة الفرنج الذين جمعوا بين الشجاعة والخبرة الحربية، وقد انتهت مسيرته العسكرية بمصرع مدوٍّ في وقعة البلاط. وقد أشار إليه ابن القلانسي بقوله: «كان من دهاة الإفرنج وشجعانهم، قتل في وقعة البلاط مع خلق كثير من فرسانه بجيش إيلغازي بن أرتق.» ينظر: ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، (بيروت: د.ت)، ص٢٠١.

[١٢]) الأتابك لقب ذو جذور تركية عريقة، إذ يعني في معناه الحرفي (الأب الأمير)، وكان يُوكَل إلى من يحمله الإشراف على تربية أبناء الملوك والسلاطين السلجوقيين وتأهيلهم. ينظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م: د.ت)، ج٢، ص٣١٥

[١٣]) نور الدين محمود بن زنكي من أبرز القادة الذين رسموا ملامح المرحلة الانتقالية بين الوهن والنهوض الإسلامي، وقد وصفه ابن خلكان بقوله: «افتتح كثيراً من بلاد الفرنج، وأظهر العدل بدمشق وبنى أسوار مدن الشام، وكان زاهداً متعبداً.» ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت: د.ت)، ج٥، ص١٨١.

[١٤]) بصرى مدينة حورانية عريقة جمعت بين الوظيفتين التجارية والعسكرية، وهي من المراكز الحضرية التي حفظت لها مكانتها عبر العصور. وقد أشار إليها الحميري بقوله: «أوله وسكون ثانيه، وهي مدينة مشهورة من أعمال حوران من كورة دمشق، كانت في الغابر قصبة لتلك البلاد، وبها آثار قديمة ومبان عجيبة وقلعة حصينة.» ينظر: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، (بيروت: ١٩٨٠م)، ج١، ص٩٦.

[١٥]) عباس بن أبي الفتوح قائد عسكري فاطمي اتسمت مسيرته السياسية بالطموح والدموية، وقد انتزع الوزارة اغتيالاً لسلفه ابن السلار. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٥٣.

[١٦]) الظافر بأمر الله الخليفة الفاطمي الثاني عشر الذي عايش أسامة بن منقذ في مصر، وقد ترجم له ابن كثير بقوله: «إسماعيل بن الحافظ لدين الله... ولي الخلافة بعد أبيه سنة ٥٤٤هـ، وكان شاباً حسن الصورة، وقتل في سنة ٥٤٩هـ.» ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، دار هجر للطباعة والنشر، (د.ت: د.م)، ج١٦، ص٣٤٥

[١٧]) كفرطاب بليدة تقع بين المعرة وحماة على طرف جبل السماق، وقد أشار إليها ياقوت بقوله: «بالفتح، وسكون الراء، وطاء مهملة، وألف، وباء موحدة: بليدة بين المعرة وحماة في طرف جبل السماق، وهي في برية لا ماء فيها إلا من الأمطار، وهي ذات شجر وزرع كثير.» ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج٤، ص٤٦٩.

[١٨]) الكر والفر أسلوب قتالي عربي أصيل يقوم على هجوم الخيالة ثم تراجعها المحسوب لاستدراج العدو إلى مواضع الكمين. ينظر: ابن قيم الجوزية، الفروسية، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار الأندلس، (د.م: ١٤١٤هـ)، ص١٣٥.

[١٩]) لنقب فن هندسي حربي يقوم على الحفر تحت أساس السور وتفريغه من الداخل، ثم إشعال النار في دعائمه الخشبية لإسقاطه. وقد أوضح ابن شداد آليته قائلاً: «يحفر الرجال تحت أساس الجدار ثم يضعون الخشب ويشعلون فيه النار ليسقط السور.» ينظر: ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: أحمد إيبيش، دار الأوائل، (د.م: ٢٠٠٣م)، ص١١٢.

[٢٠]) الباشورة منشأة دفاعية تشيَّد أمام بوابة الحصن مباشرةً لتكون الحاجز الأول في وجه المهاجمين وآلات الحصار. وقد عرفها القلقشندي بقوله: «هي بناء ممتد أمام باب الحصن أو السور، يُبنى لوقاية الباب من هجوم العدو أو صدمه بالمجانيق، وتكون كالحصن الصغير الملاصق للسور الأصلي.» ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، (بيروت: د.ت)، ج٤، ص١٢.

[٢١]) الكمين والمكيدة من أرسخ أساليب الخداع الحربي، إذ يقوم على إخفاء قوات في موضع محجوب لمباغتة العدو في لحظة غفلته. وقد فصَّل ابن هذيل الأندلسي صورته بقوله: «أن يظهر القائد جهة ويخفي أخرى، أو يكمن في شعراء أو غيضة، فإذا مر العدو خرجوا عليهم، وهو من باب الحرب خدعة، وكان الإفرنج في ذلك الزمان أشد الناس حذراً من الكمائن والمكايد السيئة.» ينظر: ابن هذيل الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشجعان، دار المعارف، (القاهرة: د.ت)، ص١٠٢

[٢٢]) لزَّرد درعٌ دفاعية تنسج من حلقات حديدية متداخلة ومحكمة لتوفير الحماية لجسد المحارب في المعركة، وقد أوضح الزبيدي تعريفه بقوله: «بفتحتين، هي مسامير الدرعِ، وقيل هو الدرعُ نفسهَا إذا كانت دقيقة الحلق محكمة النسج.» ينظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ج٨، ص١١٢

[٢٣]) الرماح المؤلَّفة ابتكار تقني حربي يقوم على توصيل رمحين ببعضهما بحديدة محكمة للحصول على طول استثنائي يتيح صد خيل العدو قبل أن تصل إلى الصفوف. وقد وضَّح ابن أرنبغا هذا الأسلوب بقوله: «وهي التي تجمع بين رمحين بحديد وصناعة محكمة ليزداد طولها وقوتها في الطعن، وتستعمل في صد خيل العدو قبل وصولها إلى الصفوف.» ينظر: ابن أرنبغا الزردكاش، الأنيق في المناجيق، تحقيق: إحسان هندي، ص٨٨.

[٢٤]) الكزاغند سترة عسكرية وقائية مبطَّنة بالحرير أو القطن، تلبس فوق الدرع أو تحته لاستيعاب صدمة السلاح وتوفير مزيد من الراحة للمحارب. وقد أوضح المقريزي أصلها اللغوي بقوله: «كلمة فارسية معربة، وهي ثوب محشو بالحرير أو القطن يُلبس تحت الزردية ليقيَ من صدمة السلاح.» ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، ج٢، ص٢١٥.

قائمة المصادر والمراجع

.1ابن الأثير، عز الدين (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٣م):

الكامل في التاريخ، دار صادر، (بيروت: د.ت).

.2ابن خردادبة، أبو القاسم (ت: ٣٠٠هـ/٩١٢م):

المسالك والممالك، دار صادر، بيروت.

.3ابن خلكان، شمس الدين (ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م):

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، (بيروت: د.ت).

.4ابن شداد، بهاء الدين (ت: ٦٣٢هـ/١٢٣٤م):

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مكتبة الخانجي، (القاهرة: د.ت).

.5ابن العديم، كمال الدين عمر (ت: ٦٦٠هـ/١٢٦٢م):

زبدة الحلب من تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، (بيروت: د.ت).

.6ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت: ٥٥٥هـ/١١٦٠م):

ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، (بيروت: د.ت).

.7ابن منظور، جمال الدين (ت: ٧١١هـ/١٣١١م):

لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.م: د.ت).

.8ابن منقذ، أسامة (ت: ٥٨٤هـ/١١٨٨م):

كتاب الاعتبار، تحرير: فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة: ٢٠١٠م).

.9أبو شامة المقدسي، شهاب الدين (ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٧م):

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مؤسسة الرسالة، (بيروت: د.ت).

.10الذهبي، شمس الدين (ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٨م):

سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت.

.11الزبيدي، مرتضى (ت: ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م):
تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، (د.م: د.ت).
.12ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م):
معجم البلدان، دار صادر، (بيروت: د.ت).

List of Sources and References

.١Ibn al-Athir, Izz al-Din (d. 630 AH/1233 CE): Al-Kamil fi al-Tarikh (The Complete History), Dar Sader, (Beirut: n.d.(.
.٢Ibn Khurdadba, Abu al-Qasim (d. 300 AH/912 CE): Al-Masalik wa al-Mamalik (Routes and Kingdoms), Dar Sader, Beirut.
.٣Ibn Khallikan, Shams al-Din (d. 681 AH/1282 CE): Wafayat al-A'yan wa Anba' Abna' al-Zaman (Obituaries of Eminent Men and News of the Sons of the Age), Dar Sader, (Beirut: n.d.(.
.٤Ibn Shaddad, Baha' al-Din (d. 632 AH/1234 CE): Al-Nawadir al-Sultaniyya wa al-Mahasin al-Yusufiyya (The Sultanic Anecdotes and the Yusufi Virtues), Maktabat al-Khanji, (Cairo: n.d.(.
.٥Ibn al-Adim, Kamal al-Din Umar (d. 660 AH/1262 CE): Zubdat al-Halab min Tarikh Halab (The Cream of Aleppo from the History of Aleppo), Dar al-Kutub al-Ilmiyya, (Beirut: n.d.). 6. Ibn al-Qalanisi, Abu Ya'la Hamza (d. 555 AH/1160 CE:(
Supplement to the History of Damascus, Jesuit Fathers Press, (Beirut: n.d.(.
.٧Ibn Manzur, Jamal al-Din (d. 711 AH/1311 CE:(
Lisan al-'Arab, Dar Sader, Beirut, (n.p.: n.d.(.
.٨Ibn Munqidh, Usama (d. 584 AH/1188 CE:(
Kitab al-I'tibar, edited by Philip Hitti, Library of Religious Culture, (Cairo: 2010 CE.(
.٩Abu Shama al-Maqdisi, Shihab al-Din (d. 665 AH/1267 CE:(
Kitab al-Rawdatayn fi Akhbar al-Dawlatayn al-Nuriyya wa al-Salahiyya, Al-Risalah Foundation, (Beirut: n.d.(.
.١٠Al-Dhahabi, Shams al-Din (d. 748 AH/1348 CE:(
Siyar A'lam al-Nubala', Al-Risalah Foundation, Beirut. 11. Al-Zubaidi, Murtada (d. 1205 AH/1790 CE): *Taj al-'Arus min Jawahir al-Qamus*, Dar al-Hidayah, (n.p.: n.d.(.
.١٢Yaqut al-Hamawi, Shihab al-Din (d. 626 AH/1229 CE): *Mu'jam al-Buldan*, Dar Sader, (Beirut: n.d.(.